التطور الدلالي في الخطاب الصوفي
"الفتوحات المكية" لمحي الدين بن عربي أنموذجا

The Semantic Evolution in the Sufi Discourse
Al-Fotuhat Al-Maqiyah by Mohieddine Ibn Arabi as a sample

د. حمزة السعيد

جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية

تاريخ الإرسال: 2019/10/24 **تاريخ القبول: 2019/11/07**

ملخص:

هذا المقال دراسة تطبيقية للتطور الدلالي أو تغير المعنى الذي تتعرض له الكلمات من الخاص إلى العام أو من الانحطاط إلى الرقي في الخطاب الصوفي، الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي نموذجا. وهو لا يعلل أشكال هذا التطور ومظاهره وأسباب حدوثه، وإنما يسعى إلى توضيح كيف يسهم التطور الدلالي في تحقيق الانسجام النصي من خلال تعالق دلالة الكلمات التي أصابها التغير مع المعنى الأول الذي كانت عليه في الوضع قبل استعمالها الصوفي.

الكلمات المفتاحية: التطور الدلالي؛ الخاص؛ العام؛ الانحطاط؛ الرقي؛ الانسجام؛ المعنى.

Abstract:

This essay is a practical study of the semantic evolution or change in of meaning which words under go from specific to general or from regression to development in the sufi address oration in the makka conquests by "mohieddin ibn arabi" as a sample he doesn't justify the forms of this evolution ,its aspects and the causes of its occurance ,but aims at explaining how the semantic evolution takes parts in achieving coherence in text through inference of the words meaning significance whose first meaning at the first situation use changed .

***Keywords*:** Semantic evolution, specific, general, regression advancement, harmony, meaning.

مقدمة:

تسري سنة الله في خلق الكائنات نحو التغير والتبدل، ولما كانت اللّغة ظاهرة اجتماعية فإنها تتعرض دوما للتطور في مختلف المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. وهذا التطور يكون أوضح ما يكون في المستوى الدلالي لأنّه يمثل كلام الأفراد واستعمالهم اللغة وتطويع معانيها للتعبير دوما عن واقع جديد متغير، اجتماعيا، دينيا، حضاريا، فكريا، بإفراغ بعضا من معانيها القديمة وتعبئتها أو شحنها بدلالات جديدة، كما في الخطاب الصوفي الذي تتغير فيه معاني الكلمات بتضييقها نحو التخصيص منسجمة مع ما كانت عليه من تعميم، أو انتقالها نحو الرقي الدلالي، والمعنى المتطور مرتبط بسالفه مشتق منه متعالق منسجم معه ومع سياق استعماله. وعلى ضوء ذلك فالإشكالية المطروحة في هذا المقال هي كيف يسهم هذا التعالق الذي يدركه المتلقي ويبنيه في تحقيق الانسجام الدلالي النصي ويعينه على فهم الخطاب؟ انطلاقا من أنّ الخطاب المفهوم خطاب منسجم الدلالات .

أولا: التطور الدلالي

مصطلح يطلق على تغير معنى الكلمة من العام إلى الخاص، فكلمة "الطهارة" تخصص معناها وأصبحت تعني الختان، و"الحريم" كانت تطلق على كلّ محرم وتخصص معناها على النساء فقط[1]، وكلمة "البأس" كانت خاصة بالحرب ثم أصبح معناها عاما على كلّ شدة[2] ومن الابتذال إلى الرقي، كما في كلمة "مارشال" التي كانت تعني خادم الاصطبل[3] ثم ارتقت دلالتها وأصبحت تدل على رتبة عسكرية. وقد تنحط الدلالة بعد رقيها نحو "الحاجب" التي كانت تعني منصب رئيس الوزراء وانحط معناها الآن دالا على العامل الواقف على بوابة أي إدارة[4]. "وغير ذلك من آلاف الألفاظ التي أحياها الناس أو اشتقوها وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلبتها حياتهم الجديدة. وتتم هذه العملية عن طريق الهيئات والمجامع اللغوية، أو قد يقوم بها بعض الأفراد من الموهوبين في صناعة الكلام كالأدباء والكتاب والشعراء"[5].

وإذا جئنا إلى الخطاب الصوفي فقد "طور الصوفيون (مفهوم المعنى) في الأدب والنقد العربيين، فمفهوم المعنى في النقد القديم مفهوم جامد، أمّا في الصوفية فهو مفهوم متحرك متغير باستمرار"[6]، يعبر عن تجربة صوفية إبداعية متميزة بحالات وجدانية ولذة روحية لا يمكن التعبير عنهما بالألفاظ في معانيها العادية، وإنما في معانيها الخاصة المنزاحة من قيود المألوف "مما يكاد يكون تفريغا لمعنى الكلمة وصبّ معنى آخر فيها حيث تزدوج الدلالة بما يتجاوز الحدّ الوضعي لها"[7]،نحو دلالة ثانية متطورة عن الأولى مشتقة منها مخالفة لمعناها الاجتماعي السابق المتعارف عليه في الوضع. علما أنّ التغير يكون بالانتقال من الدلالات الحسية إلى الدلالات التجريدية نتيجة لتطور العقل الإنساني ورقيه[8].

إنّ اللغة الصوفية "تشكّل في مجموعها بناء مختلفا يتألف من المفردات العادية ولكن باستخدامات جديدة، بدلالات جديدة في علاقات جديدة تفضي إلى دلالات وعلاقات أكثر جدة"[9]، تمثل الانسجام الذي يخفيه المتكلم ويبنيه المتلقي القادر على فهم العلاقة الخفية التي تربط الدلالة الجديدة وتعالقها مع المعنى القديم الذي كانت عليه قبل استعمالها الصوفي، ومعنى هذا أنّ التماثل بين الدلالة القديمة والجديدة كفيل ببناء الانسجام الدلالي المتمثل "في وجود علاقات دلالية بين المدلول القديم والمدلول الجديد للكلمة، قد تكون علاقة المشابهة بين المدلولين"[10]، بحيث يرتبط المعنى الجديد بجزء من القديم منسجما مع سياق استعماله، وهذا ما يتناوله هذا المقال من خلال دراسة تطور معاني بعض الكلمات في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي[11].

ثانيا: التطور من العام نحو الخاص

- **كلمة السفر**

يقول ابن عربي من البسيط:

توجه القلب بالأذكار مرتحـلا على مراسم دين الله عنوان
على التحقق إن القلب في سفر عزما وفيه دلالات وبرهـان

"اعلم أيدك الله أن السفر حال المسافر والطريق هو ما يمشي فيه ويقطعه بالمعاملات والمقامات والأحوال[12] والمعارف، لأنّ في المعارف والأحوال الإسفار عن أخلاق المسافرين"[13].

تطور معنى السفر نحو الخاص لتدلّ على السفر الصوفي "والسفر في الاصطلاح هو توجه القلب إلى الحق"[14] سفرا روحيا من عالم الكائنات الدنيوية إلى عالم الأنوار الإلهية بمعنى كيفية الوصول إلى الله والرجوع من حضرته[15] عبر المجاهدات القاسية التي ينتقل فيها من مقام إلى مقام ومن حال إلى آخر.

إنّ الانتقال الروحي في السفر الصوفي هو المعنى الخاص الذي يفهمه المتلقي لانسجامه وتعالقه مع الانتقال المادي من مكان إلى آخر لغرض السياحة أو التجارة أو العمل لعامة الناس بوصفه المعنى العام الذي كانت تدل عليه الكلمة.

- **السلوك:**

يقول ابن عربي من الكامل:

إنّ السلوك هو الطريق الأقـوم فإذا استقمت فأنت فيه السالك
لا تمنعك عن السلوك مضايق من خلـفهن أرائـــك ودرانـــك

"اعلم وفقك الله أنّ السلوك انتقال من منزل عبادة إلى منزل عبادة ... والمنتقل هو السالك وهو صاحب مجاهدات بدنية ورياضية ... غير أنّ السالكين في سلوكهم أربعة أقسام"[16].

طور الاستعمال الصوفي كلمة السلوك بجعل دلالتها المتكررة خاصة بسالك الطريق الصوفي "لأنّ السالك يسير في طريق الله حتى يبلغ المقصود ... السالك هو الذي انجذب بقلبه لله فرجع إليه وسلك الطريق"[17]، كالانتقال من الزهد إلى الصبر، انسجاما مع ما كانت تدل عليه الكلمة من تعميم على كلّ من اتبع طريقا ما أو مشى فيه.

- **الشطح:**

نظم من الكامل:

الشطح دعوى في النفوس بطبعها لبقيـة فيـها من آثـار الهـوى
هـذا إذا شطحــت بقول صــادق من غير أمر عند أرباب النهى

"اعلم أيدك الله أن الشطح كلمة دعوى بحق تفصح عن مرتبته التي أعطاه الله من المكانة .... والشطح زلة المحققين ...."[18].

أصبح معنى الشطح في الخطاب الصوفي خاصا يدلّ على "حركة أسرار الواجدين إذا قوى وجدهم"[19]، إنّه حركة الصياح الذي يصدر من العارف الصوفي باضطرار واضطراب وهو من زلاتهم بالقول: "سبحاني ما أعظم شأني" "أنا الله"[20]. فالشطح الصوفي إذا ممثلا في اضطراب لسان العارف في أقواله هو المعنى الخاص الذي يفهمه المتلقي بناء على انسجامه مع حركة الرياح التي تهزه.

- **الإرادة:**

"وأمّا الإرادة عندنا فهي قصد خاص في المعرفة بالله وهي أن تقوم به إرادة العلم بالله من فتوح المكاشفة"[21].

تدل على فئة خاصة من الصوفية أو هي "الإقبال بالكلية على الحق، والإعراض عن الخلق، وهي ابتداء المحبة"[22] أو فناء المحب (الصوفي) في المحبوب (الله)، فينسى نفسه ولا يرى إلا الله، بحيث يصبح إنسانا كاملا ربانيا في الكون ظاهره خلق وباطنه إله. والمتلقي يفهم أنّ الإقبال الخاص على الحق يتعالق مع المعنى العام المتمثل في إقبال الناس عامة على أداء الأفعال جميعها والعزم على تحقيقها.

- **المقام:**

نظم من البسيط:

إنّ المقام من الأعمال يكتسب له التعمل في التحصيل والطلب
به يكون كمال العارفيــن ومـا يردهم عنه لا ستر ولا حجـب

"اعلم أنّ المقامات مكاسب وهي استيفاء الحقوق المرسومة شرعا على التمام"[23]

إذا كان "المقام في التصوف معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل، بما يقوم به من مجاهدات ورياضات وعبادات، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام إذا لم يستوف أحكام ذلك المقام"[24]، فإنّ مكانة العارف الصوفي ووصوله إلى مقام التأله بفنائه في المحبوب الله هو المعنى الخاص الذي يفهمه المتلقي من المقام لأنه ينسجم مع المعنى العام الدال على المنزلة أو المكان الذي يلبث فيه عامة الناس ويتخذونه وطنا لهم.

- **الحرية:**

"اعلم أنّ الحرية عند الطائفة الاسترقاق بالكلية من جميع الوجوه، فتكون حرا عن كلّ ما سوى الله وهي عندنا إزالة صفة العبد بصفة الحق، وذلك إذا كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه وما هو عبد إلا بهذه الصفات ... فكان هذا المحل حرا إذ لا معنى له من عينه ما لم يكن موصوفا بهذه الصفات".[25]

دلّ تكرار الحرية هنا على معنى خاص هو تحرر العبد من صفاته البشرية وفنائه في الصفات الإلهية "انقطاع الخطر من تعلق ما سوى الله"[26]. علما أنّ انقطاع العبد أو مفارقته وإزالته لصفاته البشرية هو المعنى الذي يتعالق مع إزالة العبودية والقيد عن العبد المتحرر.

- **السهر:**

"فإذا لم يحفظ العبد بسهر قلبه ذاته الباطنة كما يحفظ بسهر عينه ذاته الظاهرة وإن كان نائما فيكون ممن تنام عينه ولا ينام قلبه ويحفظ غيره بحفظه فما سهر من ليست هذه صفاته"[27].

تحقق الانسجام النصي عبر معاني كلمة السهر التي تغير معناها نحو الخاص من رجال الصوفية الساهرين معنويا بقلوبهم، من خلال تعالقها مع معناها العام الدال على السهر المادي لعامة الناس بأعينهم.

تبين الأمثلة المدروسة في هذا السياق أنّ خطاب الفتوحات المكية طور معاني الكلمات "بإعطاء الكلمة العامة معنى خاصا اصطلاحيا"[28]، مجردا منقولا من دلالته الحسية متعالقا مرتبطا بها دالا على تجربة صوفية روحية وجدانية إبداعية متميزة لفظا ومعنى.

- **الوسم والرسم:**

"اعلم أنّ الوسم والرسم عند الطائفة نعتان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل، يريدون بما سبق في علم الله لا أنهما جريا في الأزل ... فالوسم بالواو من السمة وهي العلامة الإلهية على العبد أو في العبد تكون دلالة على أنه من أهل الوصول والتحقق. وأمّا الرسم بالراء فهو أثر الحق على العبد الظاهر عند رجوعه من حال ما قد دعاه أو مقام فيصدقه هذا الأثر الظاهر عليه في دعواه".

ثالثا: التطور من الخاص إلى العام

- **الغربة:**

"... ومن غربة العارفين بالله، غربتهم عن صفاتهم عند وجودهم الحق عين صفاتهم وهذه غربة حقيقية، ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة فكانت الدنيا وطننا واتخذنا فيها أوطانا فاغتربنا عنها بحالة تسمى سفرا وسياحة إلى أن اغتربنا عنها بالكلية إلى موطن يسمى البرزخ فعمرناه مدة الموت فكان وطننا، ثم اغتربنا عنه بالبعث إلى أرض الساهرة"[29].

طوّر الاستعمال الصوفي دلالة هذه الكلمة المتكررة نحو العام وأصبحت تعني ابتعاد العارفين عن صفاتهم عند فنائهم في الحق، وابتعادهم عن بطون أمهاتهم وسفرهم وسياحتهم وموتهم وبعثهم، كلّ ذلك يعدّ غربة. ومعاني مفارقة الصوفي لما ألفه من حياة وعزلته سائحا روحيا بالقلب مسافرا من مقام إلى آخر في تكرار الكلمة السابقة هو الذي يربط دلالتها العامة لتنسجم مع معناها الخاص بمفارقة الوطن لا غير.

- **الجهاد:**

"إنّ المجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية المؤثرة في المزاج وهنا وضعفا، ... ثم إنّ هذه الحركات البدنية المحمودة شرعا منها حركات في سبيل الله مطلقا وهي أنواع سبيل كل بر مشروع فمنه ما فيه مشقة فيسمى مجاهدة، .... وبها أسميناه ... فنظرنا إلى أعظم المشاق فلم نجد أعظم من إتلاف المهج في سبيل الله وهو الجهاد في سبيل الله "[30].

أضحت دلالتها العامة تعني الجهاد في كلّ شيء الـ "مجاهدة هي صدق الافتقار إلى الله تعالى بالانقطاع عن كلّ ما سواه وقيل بذل النفس في رضاء الحق، وقيل فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأماني والشبهات"[31] ومعاني الجهد والمشقة والصبر التي يدركها المتلقي هي الخيط الرفيع الذي يربط دلالتها العامة بدلالتها الخاصة بالجهاد في سبيل الله فقط.

- **النكاح :**

"اعلموا يا إخواننا أنّ هذا المنزل من أعظم المنازل قدرا هو منزل النكاح الغيبي وهو نكاح المعاني والأرواح .... فالجسمانيات كلّها أولاد عن نكاح غيبي ... مدرج في نكاح حسي كنكاح الرياح والمياه والحيوانات والنبات والمعادن ..."[32].

غيّر الاستعمال الصوفي معناها نحو العام، وصارت تدلّ على النكاح الذي يشمل الظواهر الموجودة في الكون كلها مادية كانت أم معنوية بمعنى أنّ "المسألة الجنسية تغطي جميع مناحي الكون وتشمل كلّ صور الوجود العملية القائمة بين الرجل والمرأة صورة مصغرة للنكاح الإلهي الذي يتحقق بين الأمر الإلهي والطبيعة العملية بين الذكر والأنثى جزء من النكاح الشامل للوجود بأكمله"[33]، وحتى الكتابة ولغة التخاطب بين الناس نكاح، إذ جعل المتكلم أبا والسامع أما والكلام نكاحا وما تولّد من فهم السامع جعله ولدا[34]، أي أنّ النكاح "سار في جميع الذراري أنه في كلّ شيء حتى في القياس بحديه والنتيجة، وفي الاتحاد بالفاعلية والمفعولية"[35].

إنّ تكرار معاني النكاح يسهم في تحقيق الانسجام الدلالي لأنّ معانيها تدل على الولوج والتوالد أو الإنتاج، وهي الخيط الرفيع الذي يربطها بما كانت تدل عليه من نكاح بين الرجل والمرأة فقط.

- **العقيقة:**

"فكانت العقيقة التي جعل الله على كلّ إنسان شكرا لما خصّه به من الوجود على هذه الحالة، وجعلها في سابعه، إذ كان على حالة لا تقبل التغذي منها لئلا يكون قد سعى لنفسه فأكلها ... وكلّ إنسان مرهون بعقيقته ... ولذلك لم يعق العالم بجملته عن نفسه وإن كان على الصورة لأنه ما ثم من يأكل عقيقته فإنه ما ثم إلا الله ... فكانت عقيقة العالم تعود عبثا فجعل سبحانه بدلا من هذا الشكر الذي هو العقيقة التسبيح بحمده شكرا على ما أولاه من وجوده على صورته ..."[36]

طورها الاستعمال الصوفي نحو العام، وأضحت تعبر عن ولادة العالم وظهور الأشياء منسجمة مع المعنى الخاص للعقيقة أو الوليمة التي تقام بسبب ظهور المولود.

- **السياحة:**

"ومن الأولياء أيضا السائحون، وهم المجاهدون في سبيل الله من رجال ونساء قال صلى الله عليه وسلم "**سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**". والسياحة المشي في الأرض للاعتبار برؤية آثار القرون الماضية ومن هلك من الأمم السالفة، وذلك أنّ العارفين بالله لما علموا أنّ الأرض تزهو وتفخر بذكر الله عليها ... وأنّ المفاوز المهلكة البعيدة عن العمران لا يكون فيها ذاكر لله من البشر، لزم بعض العارفين السياحة صدقة منهم على البيداء ... فكأنّ السياحة بالجهاد أفضل من السياحة بغير الجهاد".[37]

تعني جلّ معانيها المشي للجهاد في سبيل الله، والمشي في الأرض لرؤية آثار الأمم البائدة، وهو تطور نحو العام يتعالق منسجما مع الخاص المتمثل في المشي في السياحة لهدف لرؤية الأمم فقط دون الجهاد في سبيل الله.

رابعا: من الانحطاط إلى الرقي

- **الخمر:**

نظم من الكامل:

والسكر من خمر الهوى والسكر من نظر المدبر

قال تعالى ﴿**وأنهار من خمر لذة للشاربين**﴾ [38] وهو علم الأحوال، ولهذا يكون لمن قام به الطرب والالتذاذ "[39] " فخمره الذي يشرب إنما هو دليله وبرهانه"[40].

الدلالات التي تكررت فيها كلمتي الخمر والسكر كلها منحطة لا قيمة لها، رقّاها الاستعمال في هذا السياق لتدل على شراب الحب الروحي الذي يجتاح كيان ابن عربي وأصبحت "تدل على أنّ هذا الشراب المسكر ليس إلا شرابا معنويا، ينبثق عن حالة وجدانية إثر تلقيها واردا إلهيا قويا من طبيعته أن يثير النشوة والطرب والالتذاذ"[41] جرّاء "مشاهدة الحق تعالى، أو المحبة الإلهية، أو المعارف الإلهية، وكلّها دلالات محتملة"[42] معنوية راقية تحوم حول نشوة الالتذاذ بالحب الإلهي، وهو المعنى الذي يدركه المتلقي ويبني انسجامه مع نشوة احتساء شراب الخمر بوصفه المعنى الانحطاطي الذي كانت تدل عليه الكلمة في الوضع قديما "فالقدم عند شعراء الخمرة من غير الصوفية قدم مادي يتوقف عند فترة تاريخية معينة، بيد أنّه عند الصوفية يتحوّل إلى قدم معنويا يسرمد في الأزل"[43].

- **السكر:**

"فالسكر الطبيعي سكر المؤمنين، والسكر العقلي سكر العارفين، وبقي سكر الكمل من الرجال وهو السكر الإلهي الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم **"اللهم زدني فيك تحيّرا"** والسكران حيران، فالسكر الإلهي ابتهاج وسرور بالكمال وقد يقع في التجلي في الصور سكر بحق"[44].

دلالة السكر منحطة رقاها الخطاب الصوفي لتدل على اللذة الروحية المتمثلة في النشوة والفرح اللذين يشعر بهما كلّ من احتسى خمرة المعرفة الإلهية وذاق من كؤوس حبها مبتهجا

نشوانا بمشاهدة جمال المحبوب، والمتلقي وهو يدرك بأنّه "كما يسكر المخمور بالشراب يسكر الصوفي بالمحبة الإلهية، وينتج عن ذلك الغياب عن الوعي، وعن الجسد معا"[45] وأنّ غياب الإحساس بالذات البشرية عن الصوفي الذي ارتقى إلى فناء الألوهية معنى راق ينسجم مع انحطاط معنى غياب الوعي والجسد عن السكير، فإنّه يبني التعالق أو الانسجام الحاصل بين الدلالتين: المنحطة المادية والراقية المعنوية.

- **الفناء:**

"اعلم أنّ الفناء عند الطائفة يقال بإزاء أمور، فمنهم من قال: إنّ الفناء فناء العاصي ومن قائل: إنّ الفناء فناء رؤية العبد فعله بقيام الله على ذلك، وقال بعضهم: الفناء فناء عن الخلق وهو عندهم على طبقات منها الفناء عن الفناء وأوصل بعضهم إلى سبع طبقات"[46].

تشمل دلالة الفناء في هذا السياق فناء المعاصي وزوالها، والفناء (البعد) عن مخالفة الله وعن أفعال العباد وصفات المخلوقين، إنّه الفناء عن كلّ شيء إلا الله. أو "هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات"[47]. ومن خلال هذا المعنى "فلقد تطورت فكرة الفناء والبقاء إلى القول بوحدة الوجود"[48]. ومعنى هذا أنّ الكلمات السابقة – الدالة على موت الصفات البشرية واندثارها لتذوب في الصفات الإلهية بالنسبة للمتلقي– معان معنوية راقية يفهمها بناء على انسجامها مع معناها الانحطاطي المادي الدال على الزوال والاندثار للعاقل وغير العاقل وعلى الكائن الحي وغير الحي، قال تعالى ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾[49].

- **الفارّ:**

"فإذا فرّ الفار إلى الله وعين من فرّ إليه وأبهم ما فرّ منه فما ترون تكون جائزته؟ فإن جائزة موسى جائزة منقطعة ...."[50].

تحقق الانسجام عبر كلمة فرّ ومشتقاتها التي تكررت ثلاث مرات للدلالة على "الفرار من الجهل إلى العلم، ... الفرار مما دون الحق"[51]. إنّ الفرار من الجهل، والهروب إلى الله أصبحت معان معنوية راقية متطورة يبني المتلقي انسجامها من خلال تعالقها مع ما كانت تدلّ عليه من انحطاط مادي يتمثل في هروب الناس الجبناء وخوفهم.

- **العبد:**

"وهل رأيت عبدا اصطنعه مولاه من بين عبيده واصطفاه وأعطاه مفاتيح الخزائن ثم أسرّ إليه سرا أيحسن أن يفشي ذلك السر"[52]."ثم ننزل في درجة البعد دون هذا فنقول: العبد لا يكون سيّدا لمن هو عبد له فلا شيء أبعد من العبد من سيّده فالعبودية ليست بحال قربة وإنما يقرب العبد من سيّده بعلمه أنه عبد له، وعلمه بأنّه عبد له ما هو عين عبوديته فعبوديته تقتضي البعد عن السيّد وعلمه بها يقضي بالقرب من السيّد"[53]، "العبد في اصطلاح الصوفية "هو الذي تحرر قلبه ما سوى الله، وعندئذ يكون في الحقيقة عبدا لله"[54]. وهو معنى راق تكراره عدة مرات يحقق الانسجام الدلالي من حيث تعالقه مع المعنى الانحطاطي المادي للعبيد والدال على امتلاك الإنسان للإنسان.

- **الذلّ:**

"وأذلّ الأذلاء من كان له عز وجل لأن ذلّ الذليل على قدر من ذلّ تحت عزه ولا عزّ أعظم من عزّ الحق، فلا ذل أذل ممن هو لله، ومن ذلّ لله فإنه لا يذل لغير الله أصلا .... وإنما ذل تحت سلطان العزة وهي لله ... فالذل صفة شريفة إذا كانت الذلة لله ".[55]

تغير معنى كلمة الذل ومشتقاتها المتكررة وصارت دلالتها راقية خاصة بذل الإنسان لله عز وجل فقط، منسجمة مع دلالتها المنحطة، بحيث يمثل معنى الخضوع الحلقة الواصلة بين المعنيين المتسامي والمنحط.

تؤكد الكلمات التي تغيّر معانيها من العام إلى الخاص أو من الانحطاط إلى الرقي أنّ استعمال الألفاظ في الفتوحات المكية خصوصا وفي الخطاب الصوفي عامة يؤدي إلى التطور

الدلالي المنسجم، وذلك بإثراء الدلالة القديمة بدلالات جديدة مستحدثة. يقول أحمد عبد الرحمان حماد "فقد تنتقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديد دون أن تترك الأول فتتعدد بذلك المعاني التي تدلّ عليها وتستعمل في أيّ واحد منها على حسب الأحوال والمقامات"[56] ويمثل لذلك قائلا: "ومثلها كلمة السلوك، فهي في الاصطلاح عند الصوفيين منذ العصر العباسي، واصطلاح حديث في علم النفس واصطلاح مدرسي يفيد الدلالة على أخلاق التلميذ"[57].

إن معاني هذه الكلمة والكلمات السابقة تنسجم مع ما كانت تدلّ عليه في الوضع قبل استعمالها في الخطابات المختلفة، وأنّ استعمال اللغة عبر الزمن عامل حاسم في جعل معاني الكلمات عرضة للتغير والتطور. "إنّ المدلول حينئذ سوف يلحقه تغيير جوهري ولكنّه مع ذلك سوف يظلّ مرتبطا بالمدلول القديم ومتصلا به"[58].

خاتمة:

ومن خلال ما تقدّم يتضح أن اللغة ليست ثابتة راكدة، إذ إن معانيها تتعرض للتطور أو التغير عبر الزمن بحيث أنّ استعمالها في الخطابات المختلفة والنصوص الإبداعية يغير دوما معانيها، أي أنّ ظهور أفكار واعتقادات فكرية أو دينية عامل مهم في إفراغ الكلمات من دلالتها القديمة وتعبئتها وشحنها بدلالات جديدة شريطة أن تنسجم معها ولا تلغيها[59] أي أنّ الصوفي يقوم بعملية تحويل الدلالة السابقة للألفاظ وذلك بشحنها بدلالات جديدة ترتبط بالتجربة الصوفية، وعلى هذا الأساس كانت المعاني الصوفية متحركة باستمرار متجددة تجدد الأحوال الصوفية، راقية رقي مقاماتها، تستلهم عناصرها الجديدة من مادة ثابتة قديمة تتعالق معها وتنسجم.

الهوامش والإحالات:

(1)– ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ط4، 1980، ص154.

(2)– ينظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، دراسات في الدلالة والمعجم، دار غريب، القاهرة، 2001، ص96

(3)– ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر: كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط12، 1972 ص211.

(4)– ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص157.

(5)– المرجع نفسه، صص 146،147.

(6)– وضحى يونس، القضايا النقدية في النثر الصوفي حتى القرن السابع الهجري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006، ص102.

(7)– آمنة بلعلى، أثر الرمز في بنية القصيدة العربية المعاصرة – دراسة تطبيقية، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص110.

(8)– ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص ص 161،162.

(9)– سحر سامي، شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص78.

(10)– فريد حيدر، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2005 ص 91.

(11)– هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، ولد في (560هـ– 1165). من أشهر كتبه "الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والملكية"، وهو موسوعة علمية تناول فيها موضوعات صوفية وعقلية ودينية فقهية وفلسفية كلامية، بدأ تدوينه في مكة سنة 598هـ وأكمل نسخته الأولى سنة 529هـ، أمّا النسخة الثانية وفيها بعض الإضافات فقد أتمها قبل سنتين من وفاته سنة 636هـ.

(12)– المقامات هي مجاهدات شخصية أو مكاسب تحصل ببذل المجهود، وسمي المقام كذلك لثبوته واستقراره، ويجب أن يبقى مع المتصوف من بداية الطريق إلى نهايته، ولا ينتقل من مقام إلى آخر إلا إذا استوفى أحكام ذلك المقام. أما الأحوال فهي شعور روحي أو حالة نفسية يفيضها الله على قلب الإنسان مثل: القرب، المحبة، الخوف، الشوق... وسمي الحال حالا لتحوله أي أنه ينزل في القلب فلا يدوم والسالك في طريق التصوف يجب أن يمر بالمقامات والأحوال لكي يكون عارفا يصل إلى اليقين. ينظر: صهيب الرومي، التصوف الإسلامي، بيسان للنشر، بيروت لبنان، ط1، 2007، ص 95 وما بعدها.

(13)– ابن عربي، الفتوحات المكية، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2006 ص19.

(14)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، دار الرشاد، مصر، القاهرة، ط1، 1997، ص 125.

(15)– ساعد خميسي، ابن عربي المسافر العائد، منشورات الاختلاف، الجزائر– الجزائر، ط1، 2010 صص 130،131.

(16)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 15.

(17)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 127.

(18)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص ص 24، 25 .

(19)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 134.

(20)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج1، ص ص 410، 411.

(21)– المصدر نفسه، ج4، ص 225.

(22)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 18 .

(23)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص22.

(24)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 237 .

(25)– ابن عربي، الفتوحات المكية ،ج4، ص 196.

(26)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 76.

(27)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص 274.

(28)– سعاد الحكيم، ابن عربي ومولد لغة جديدة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان ، ط1، 1991،ص 78.

(29)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 235 .

(30)– المصدر نفسه، ج 3، ص219.

(31)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 219 .

(32)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 427.

(33)– قدور رحماني، بنية الخطاب الشعري في الفتوحات المكية لابن عربي، أطروحة معدة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب العربي مخطوطة بجامعة الجزائر، 2005 /2006، ص 122.

(34)– ابن عربي ، الفتوحات المكية، ج7، ص 213 .

(35)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 247 .

(36)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج5، ص107 .

(37)– المصدر نفسه، ج3، ص 51.

(38)– سورة محمد، الآية 15.

(39)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 259.

(40)– المصدر نفسه، ج4، ص 260.

(41)– أمين يوسف عودة، تجليات الشعر الصوفي قراءة في الأحوال والمقامات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2001، ص 337.

(42)– المرجع نفسه، ص 345.

(43)– أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن وعالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008، ص 197.

(44)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 261.

(45)– عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، موفم للنشر الجزائر، 2008، ص 257.

(46)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج4، ص 211.

(47)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 196.

(48)– المرجع نفسه، ص 190 .

(49)– سورة الرحمان، الآياتان 26 ،27.

(50)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص 234.

(51)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 196.

(52)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج3، ص 522.

(53)– المصدر نفسه، ج4، ص 285.

(54)– عبد المنعم الحفني، المعجم الصوفي، ص 172.

(55)– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج7، ص ص 64، 65.

(56)– عوامل التطور اللغوي، دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1 1983، ص 143.

(57)– المرجع نفسه، ص 143.

(58)– المرجع نفسه، ص 120.

(59)– عبد الحميد هيمة، الخطاب الصوفي وآليات التأويل، ص 96.